

يجعلون نسبتة عاصمة ملكهم
وينزعون الخلافة من بني أمية

بنو حمود لإدارة

لهوستان: إلهيس خليفة

يصدق على الدور الذي أعقب نهاية دولة العاميين بعد مقتل عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الملقب بالناصر المثل القائل : « إن من يزرع الريح يحصد العاصفة ».

ذلك أن بني أمية هجموا على بلاد المغرب وتصرفوا في دوله واستعانوا على حربها بدكائهم وأموالهم مستغلين الفتن الداخلية ومستعملين تدخلاتهم في سلاح الدعاية الدينية السنية وشعار الخلافة الإسلامية الأموية هادفين إلى ملء الفراغ العقائدي الموجود، ملتزمين بكل وسيلة دفع التقدم الشيعي ووضع الحواجز في طريقه. فاستنزوا الزعماء من معارقلهم وجاء بعض هؤلاء إليهم راغباً في عطائهم أو حمايتهم، واستعملتهم الدولة الأموية لأغراضها في الأندلس والمغرب، ولا شك أن الخزانة الأموية كانت تنوء بتكاليفهم الباهظة وتصرف لاسترضائهم واستبقاء مواليتهم وعلى حروبهم وحروبهم أموالاً طائلة. وأدى التدخل وامتداد أبعاده في المسافات الزمانية والمكانية إلى أن الدولة عرفت تضخماً في كثرة الجند التابع لها والرؤساء المعترفين بها من بلاد المغرب، أو بلاد البربر كما كانوا يدعونها، وكانت آلاف مؤلفة منهم قد نقلوا إلى الأندلس في خدمة بني أمية والدولة العامرية معروفين بشجاعتهم موصوفين بصبرهم وجلدهم وإقدامهم وشدة بأسهم. وكانوا قد استكانوا أول الأمر إذ كانت الدولة قوية وأموالها وافرة، فلما شعروا في آخر الدولة العامرية بضعفها وديب السقم فيها وقوتهم وكثرة عددهم وبأسهم وتعرفوا إلى زعماء من بلادهم ذوي مهارة وكفاءة وجدارة مالوا إلى أن تكون الدولة لهم والكلمة كلمتهم. وكان لأهل سبتة في هذا أكبر دور وأعني

بهم أهل نواحيها من البربر الذين استنزهم الناصر ومن أتى بعده من جبالهم ومعاقلهم فكان غزو سبته وأخذها وبالأعلى على الدولة الأموية، إذ صارت سبته بعد فترة من الزمن تصدر الخلفاء إلى الأندلس ليتحكموا فيها ويتصرفوا في أمرها تصرف مالكيها، إذ صارت قاعدة دولة بني حمود الشهيرة التي قضت على ملك أمية وعصفت برمجها ولكي لا أكون مغاليا فيما أقول عن دور سبته في هذه الأحداث أسوق كلمة أهل الأندلس في الموضوع مما نقله ابن حيان عن ابن مسعود في «الفائق» حيث قال : «وأنس ببيعة سبته (لِلناصر) من جهال البربر أشباه نعام الدو واساد الغيل، استلنا عما قليل غرائز أهل الأندلس، وحسدوهم ما ألفوهم عليه من حسن الحال ، فلم يلبثوا ان توثبوا عليهم آخر أمر الدولة بيد المقدار (كذا) وثبة تركتهم أوزاعا وسلبتهم العز والسلطان. وأركستهم في غياهب الافتتان الذي انسكبوا في عمائته، فطارت عصاهم شققا إلى آخر الزمان فالأمر لله الذي هو كل يوم في شأن، عز وجهه لا إله سواه»⁽¹⁾.

وإذا كان ابن مسعود جعل الأزمة التي عرفت الأندلس في هذا العصر راجعة إلى قوة البربر واستلاتهم غرائز أهل الأندلس من جهة، فإنه نسي أمورا أخرى هامة منها كثرة من كان بالأندلس من الجند البربري ووجود أزمة حكم أو أزمة مشروعية ظهرت حين حجب المنصور بن أبي عامر هشام بن الحكم الذي كان صغير السن وتولى هو مسؤولية الخلافة دونه ودون أي فرع من فروع البيت الأموي المالك وتجاوز الأمر طوره حين رغب ابنه الثاني عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر أن يصير خليفة بالفعل، وأجبر هشاما الخليفة أن يولييه عهده، فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، فكان يوما مشهودا فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد بما نصه : «هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، واعطى به صفقة يمينه ببيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة.. بعد اطراح الهدى للحق والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه وبعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب، فلم يجد أحدا أجدر أن يولييه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده.. من المامون الغيب الناصح الحبيب أي المظفر عبد الرحمن بن المشهور أبي عامر... بن محمد بن أبي عامر...»⁽²⁾ وقد أدى هذا التحايل على المسؤولية إلى

(1) المقتبس 5 : 299

(2) راجع نص العمدة في نفح الطيب 1 : 198 — 199 ط مصر 1302.

قيام ثورات وقتل انتثر بها نظم الملك وانقطع بها موصول السلك وصار الأمر فوضى، ثم اجتمع البربر على سليمان بن الحكم عام 399 هـ وما بعده، وتلقب المستعين بالله، وقتلوا ابن أبي عامر وخلعوا هشاما المؤيد وافتتحت الأندلس بهذا عهدا المعروف بعهد ملوك الطوائف الذي كان به لقبائل البربر دول بالأندلس بقيت إلى الوقت الذي دخلها فيه المرابطون بقيادة أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين.

الخبر عن دولة بني حمود

لما تولى سليمان بن الحكم أمر الخلافة سار بجنود البربر يفتح المعازل ويستولي على الحصون ويمد نفوذه على البلاد التي كان يحكمها أجداده، وكان من خطته للحصول على مبتغاه وضع رؤساء ممن انضاف إليه من البربر على رؤوس الكور والأقاليم، وكان عدد هذه القبائل المغربية عنده ستة، فأعطى صنهاجة البيرة، فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة، وأعطى مغراوة الجوف، وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة، وأعطى بني يزral وبني يفرن جيان وذواتها، وأعطى بني دمر وأزداجة شدونة ومورو وغير ذلك من الحصون وجعل لبني حمود الجزيرة وسبته وما جاورها، (3) فتولى القاسم بن حمود أمر الجزيرة وقاسم علي بن حمود أمر سبته وطنجة، وكان هذان الرجلان يعملان أول الأمر في جند سليمان إلى جانبه في ناحية شقندة فلما ظهر بلاؤهما وانقاد المغاربة لهما أراد مكافأتهما بتلك الولاية وكانا من البيت العلوي الادريسي الذي كان سلفه يحكم أرض المغرب وبلاد الريف ومدينة سبته وغيرها، وحمود أبوهما كما يذكر المؤرخون هو حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (4) فهم على هذا من ذرية عمر بن ادريس (5) الذي كان أسند إليه أخوه محمد بن إدريس حين تولى أمر الملك الادريسي بالمغرب النظر في شؤون بلاد الريف ومدنه المذكورة، فلم تكن وراثتهم لها الآن إلا وراثة ثانية لماض يذكره التاريخ.

وليث علي بن حمود أصغرهما على رأس سبته وطنجة زمنا، وكانت تبلغه فيهما أخبار الأندلس وما آل إليه أمرها من فوضى وعجز سليمان بن الحكم عن ضبطهما، وراسله أجناد البربر من قرطبة وغيرها يذكرون حاجتهم إليه، ويفاوضونه على بيعته

(3) البيان : 3 : 113

(4) المعجب : 43 — 44 والبقية 21

(5) ابن خلدون : 4 : 455

خليفة عليهم. ويبدو أنه حصل من الخليفة الأموي المخلوع هشام بن الحكم على عهد بتوليته (6) الخلافة. فزحف من عاصمته سبتة إلى مالقة وتملكها، ثم هجم بمن معه من الجند على قرطبة عاصمة الخلافة فخرج سليمان بن الحكم على رأس جيش من البربر للقائد، وأسفرت المعركة عن هزيمته ودخل علي بن حمود قرطبة وقتل سليمان صباحا عام 407 هـ، ويذكر في تاريخ هذه الحوادث أن علي بن حمود صاحب سبتة قتل قاضي هذه المدينة عام 404 هـ محمد بن عيسى وكبير فقهاءها ابن يربوع لأنهما أطلعا سليمان المستعين على ما يدبره من قصد الأندلس وانتزاع الخلافة من بني أمية، فعاقبهما على ذلك، وبهنا من هذه القصة بالدرجة الأولى تاريخ هذا الحادث الذي يدل على أن ما قصد إليه علي بن حمود لم يات عفوا ولم يكن وليد لحظة من التفكير، بل إنه كان عملا مدبرا مدروسا بتفاصيله ومختلف وجوهه، وكان علي بن حمود أظهر للناس أول الأمر أنه ما جاء إلا لنصرة هشام المؤيد، فانضم الناس إليه وعززه عدد من الجند ورؤساء الجيش من بينهم خيران الصقلبي وزاوي بن زيري وجيوش من ماكس بن زيري وبنو عمه الصنهاجيون (7) فقوي جمعه وعظم شأنه وانهمز أمامه سليمان، ودخل قصر قرطبة ولقب علي بن حمود نفسه أمير المؤمنين الناصر لدين صلوات الله عليه، وكان يكنى أبا الحسن، وأمه البيضاء بنت عم أبيه، وكان عمره أربعاً وخمسين سنة، ودامت خلافته سنة واحدة وتسعة أشهر وتقرب الناس إليه طلبا للجاه عنده وجاء الشعراء لمدحه، ومن جملتهم شاعر الأندلس الشهير أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي الذي نظم فيه عددا من القصائد الهاشمية التي كان يتشيع فيها ومنها قصيدة له طويلة قال فيها ابن بسام : إنها من الهاشميات الغر، بناها من المسك والدر، لا من الجص والآجر، بل خلدها حديثا على الدهر، وسر بها مطالع النجوم الزهر، لو قرعت سمع دعبل الخزاعي والكميت بن زيد الأسدي لأمسكا عن القول... وأولها :

لعلك يا شمس عند الأصيل شجيت لشجو الغريب الذليل

وقال فيها :

(6) المعجب : 44 والبعية 22 وفي البيان 3 : 114 نقلا عن ابن حيان أن هشام بن الحكم كان... عند مارآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته صير إلى علي بن حمود ولاية عصره وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسله إلى سبتة بذلك سرا وولاه طلب دمه واستكنمه السر فيه إلى أوانه وبلوغ زمانه.
وفي نفس الجزء من البيان : 116 أن علي بن حمود لما خرج عن طاعة المستعين أخرج كتابا نسبته إلى هشام بن الحكم، يقول فيه : «انقذني من أسر البرابر والمستعين وأنت ولي عهدي».

(7) البيان 3 : 120

إلى الهاشمي إلى الطالبني إلى الفاطمي العطوف الوصول
فأنتم هداة حياة وموت وأنتم أئمة فعل وقيل
وسادات من حل جنات عرب جميع شبابهم والكهول
وأنتم خلائف دنيا ودين بحكم الكتاب وحكم العقول
ووالدكم سيد الأنبياء لكم منه مجد حفي كفيل (8)
وقال فيه أبو بكر بن عبادة الأندلسي :

أطاعتك القلوب ومن عصى وحرب الله حربك يا علي
فكل من ادعى معك المعالي كذوب مثل ما كذب الدعي
أبى لك أن تهاض علاك عهد هشامي وجد هاشمي
وما سميت باسم أبيك إلا ليحيا بالسمي له السمي
فإن قال الفخور أبي فلان فحسبك أن تقول أبي النبي (9)

وأقام علي بن حمود في قرطبة زمنا يضبط أمر الخلافة ضبطا شديدا، ويراعي في أموره العدل والإنصاف وخاصة رؤساء الجند وكفوا أيديهم عن الظلم إذ من حق «أقل الرعية أن يرفع أعيانهم إلى الحكام بما شاء من وجوه الدعوى فتجري عليه الأحكام» (10). لكن هذه السيرة المرضية التي سلكها ابن حمود أول الأمر تغيرت إلى ضدها حين آنس من أهل قرطبة الميل إلى المرتضى ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله الذي لم يلبث أن اغتيل في عهد علي بن حمود (11) فانصرف علي إلى حربه من البربر، وصب على القرطبيين ضروبا من المغارم وانتزع السلاح منهم وقبض دورهم وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم وأعدم عامتهم، وتوصل إلى عامتهم بقوم من شرارهم، وسار شطر الناس أشراطا علي سائرهم... (12) ومهما يكن من أمر فإن الناس كرهوا سيرته وصرفوا تأييدهم عنه، وتامر غلمان من الصقالبة على قتله، فتم قتله في حمام قصره حين تسللوا إليه فيه وقتلوه فيه سنة ثمان وأربعمائة، ولما علم أخوه القاسم بمقتله قدم إلى قرطبة وصلى عليه وبعث جثمانه إلى مدينة سبتة ليدفن بها (13).

8 (الذخيرة : القسم الأول — المجلد الأول 87 — 88

9 (الذخيرة : القسم الأول — المجلد الأول 90 — 91

10 (البيان 3 : 120

11 (النفح : 201

12 (البيان 3 : 123

13 (البيان 3 : 122

سبته بعد مقتل علي بن حمود :

قام لطلب الملك بالأندلس بعد قتله المذكور رجلا من بني حمود، أولهما أخوه القاسم صاحب الجزيرة الخضراء الذي تلقب المامون، والثاني يحيى بن علي بن حمود الذي شق عصا الطاعة على عمه عام 412 هـ، وفر القاسم من وجهه وأخلى له عددا من المدن والقلاع، وتلقب بالمعتلي وصار إليه أمر مالقة وشريش والمرية وسبته فيما يذكر بعض المؤرخين (14) وخطب له على منابرها، وأغفل مؤرخون آخرون ذكر حال سبته في عهده مدرجين الخبر عنها في أخبار أخيه إدريس بن علي الذي تشير هذه المصادر إليه على أنه كان صاحب سبته بعد والده (15) على أن ابن خلدون صرح بأن عليا بن حمود عهد بعمله على طنجة إلى ابنه يحيى قبل رحيله إلى الأندلس (16).

وقد ذكر الحميدي في صفة يحيى أنه كان من كبار الملوك في الحسينيين وشجاعتهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين وأن الناس اختلفوا في كنيته ف قيل أبو إسحاق وقيل أبو محمد، وأمه لبونة بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقنون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس (17) وهو الذي قال فيه شاعر الأندلس أبو بكر بن عبادة مادحا له :

فها أنذا يا ابن النبوة نافث

من القول اريا غير ما ينفث الصل

وعندي صريح في ولائك معرق

تشيعه محض ويبعته نبل

ووالى أبي قيس أباك على العلى

فخيم في قلب ابن هند له غل (18)

وكان ليحيى بن علي هذا أخبار كثيرة في قتال عمه القاسم ومقاومته الخارجين عليهم من البربر وغيرهم، واستمر أمره حتى قتل في كمين نصب له وهو يحاصر اشبيلية عام 427 هـ.

(14) البيان 3 : 144

(15) المقنيس للحميدى — 22 والمعجب 50 والبعثة ص 25

(16) التاريخ 4 : 456 لابن خلدون

(17) المقنيس للحميدى — 23 — 24 وانظر المعجب الذي ساق نفس الكلام عنه

(18) الذخيرة — القسم الأول — المجلد الأول 478

إدريس بن علي صاحب سبتة وأخباره

كان الحسينيون الحموديون يستعينون على تدير دولتهم ببعض الوزراء وكان من أشهرهم أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ونجل الخادم الصقلي، وكان هذان الوزيران يساعدان يحيى في حروبه بالأندلس، ولما بلغهما مصرعه بادرا من مالقة إلى استدعاء أخيه إدريس الذي كان على رأس سبتة وطنجة ليبايعاه بالخلافة وشرطا عليه أن يعين حسن بن يحيى المقتول مكانه على سبتة فقبل عرضهما، وتلقب إدريس بالمتأيد، وبقي كذلك إلى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين حين تحركت الفتنة عليهما بقيادة صاحب اشبيلية وقاضيا أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، ودارت بين الفريقين حروب لم تنته إلا بوفاة إدريس الذي استشعر الهلاك والمرض في جبل ياشر على مقربة من مالقة وتوفي على إثر ذلك بعدما ظفر برأس إسماعيل قاضي اشبيلية الثائر عليه عام 431 هـ ودامت دولته بذلك بمالقة وسبتة أربع سنين وشهرا وأياما.

حسن بن يحيى صاحب سبتة وأخباره

وصل الخبر إلى حسن بن يحيى صاحب سبتة بموت إدريس بن علي عمه، فلبث بعض المدة في سبتة حتى وصله تابوت عمه ودفنه. وكان عمه ولاء على أعمال سبتة وجعل معه نجا مدبر دولتهما، ثم خرج حسن صحبة نجا وزيره إلى الأندلس فأقبل عليه الناس يبايعونه بالخلافة، وتسمى بالمستعلي وانتقم حسن من بعض مدبري المؤامرات ضد دولته، وفي مقدمتهم ابن عمه يحيى بن إدريس وابن بقنة الوزير الذي كان يريد البيعة لابن القتيل يحيى بن إدريس الملقب بجيون (19) وبعدما وضع نجا القواعد الأولى لدولة حسن عاد إلى سبتة ليدبر أمرها وترك مع حسن رجلا من التجار كان يثق به، اسمه الطيفي، وكان حسن بن يحيى متزوجا بمنت عمه إدريس القتيل فسعت هذه للقضاء على زوجها حسن قاتل أخيها، فسممته ولما مات حسن احتاط الطيفي للأمر، واعتقل إدريس بن يحيى، وبعث إلى نجا بالخبر، وكان عنده ابن صغير لحسن، فقيل إنه اغتاله، ثم استخلف على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة. وخرج إلى مالقة، وزاد في الاحتياط على إدريس بن يحيى بعدما عزم على محو أمر الحسينيين جملة ويضبط البلاد لنفسه، ودعا البربر إلى طاعته، وقام بحرب محمد بن قاسم الحمودي، ولكن البربر تغيروا عليه لما شعروا بتغير سياسته فاغتالوه في الطريق قبل وصوله إلى مالقة، وقتلوا الطيفي الذي كان نجا تركه مع حسن المذكور.

(19) تاريخ ابن خلدون 4 : 334 والمقتبس للحميدي : 30 - 31

إدريس بن يحيى يعين على سبعة رجلين برغواطين

اجتمع العسكر بعد مقتل نجا واستخرجوا إدريس بن يحيى من معتقله وقدموه للخلافة وبايعوه، وسمى نفسه العالي. وقد أدهش الناس بما كان يعمل في سياسته اذ كانت تصدر منه أمور متناقضة، فكان أرحم الناس قلبا، كثير الصدقة، وكان يرد على الناس أموالهم وضياعهم ويرجع كل مطرود إلى وطنه، وكان أدبيا شاعرا حسن المجلس، يستمع للشعراء ويجيزهم، وهو الذي مدحه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الأشبوني بالقصيدة الشهيرة التي مطلعها :

البرق لائح من أنـدريس ذرفت عينـاك بالماء المعين
وفيهـا يقول :

وكنـ أن الشمس لما أشرقت	فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي	ابن حمود أمير المومنين
ملك ذو هيئة لكنـه	خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابـه	ادخلوها بسلام آمين
فاذا ما رفعت راياتـه	خفت بين جناحي جبرئيل
وإذا أشكل خطب معضل	صدع الشك بمصباح اليقين
فيسراه يسار المعسرين	ويمنـاه لواء السابقين
يابني أحمد ياخير الورى	لأيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى	في الدجا فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى	وجيع الناس من ماء وطن
انظرونا نقتبس من نوركم	إنه من نور رب العالمين (20)

وكان إدريس يحتجب عن الشعراء من الناس، فلما قال الشاعر البيت الأخير أزال الخليفة الحجاب بينه وبينه حتى نظر إليه الشاعر.

وكان من الأمور المتناقضة التي أخطأ أهل زمنه فيه أنه كان لا يصحب إلا كل ساقط رذل، وكان إذا طلب أحد من الرؤساء حصنا له في بلده أعطاه إياه، وبلغ في هذا أن صاحب صنهاجة طلب منه أن يسلم إليه وزيره موسى بن عفان السبتي، فلما أخبره أن الصنهاجي كتب إليه في أمره أجابه ابن عفان : «افعل ما تومر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فأرسله إدريس إلى الصنهاجي فقتله (21).

(20) انظر القصيدة في النفع 432 — 433 وابتاعها ثلاثون.

(21) المعجب 66 والبيعة للضي : 28

واعتقل ابني عمه محمدا وحسنا ابني ادريس بن علي في حصن بايروش، فلما رأى صاحب الحصن اضطراب أوامره، خلى سبيلهما، وقام السودان بالثورة داعين إلى بيعه ابن عمه محمد بن ادريس، فتخلى عن المقاومة وسلم إليه زمام الحكم طائعا، فأودعه محمد بن إدريس في المعتقل الذي كان فيه وكان خلعه عام 438 هـ ووفاته ما بين سنتي 446 — 447 هـ (22).

وكان إدريس بن يحيى هذا الذي ذكرناه قد ولى بعد مقتل نجا رجلين من برغواطة البربرية على سبته وطنجة وكانا من عبيد أبيه، فلما خلع صاحب نعمتهما ظلا في مكانهما على رأس المدينتين (23) واسم هذين الرجلين البرغواطين رزق الله وسكات. وند رأى الثوار الذين قاموا على إدريس بن يحيى أن يبعده فنفوه إلى سبته إلى صاحبيه رزق الله وسكات الذين أظهرها تعظيمه ومحابته بالخلافة وعزما في واقع الأمر على إبعاده عن سياسة الملك، واتصل به بعض أكابر البربر، وأغروه بإبعاد صاحبيه والإستقلال بالحكم، وقالوا له : «إن هذين العبدین قد غلبا عليك فائذن لنا نكفك أمرهما فأبى، ثم أخبرهما، فانتقل من أولئك القوم، وأخرجنا إدريس عنهم وكان له ولد صغير في حضانتها، تمسكا به وظلا بعد ذلك يخطبان له بالخلافة». (24).

وكان ابن عباد صاحب اشيلية في هذه الأثناء استطاع أن ييسط رقعة دولته بالجزيرة وبلغ به الأمر أن امتلك الجزيرة الخضراء بأسطوله الضخم الذي كان تدخله ناجحا في الاستيلاء عليها وأخذها من صاحبها القاسم بن حمود، وكان القاسم استغاث بصاحب سبته مولى ابن حمود فأبطأ عنه حتى سقط في يده ونزل على أمان المعتضد بن عباد، ثم رحل مع أهل بيته في سفينة إلى سبته، وكان استيلاء ابن عباد على الجزيرة عام 446 هـ (25) وذكر ابن خلدون أن المعتضد طلب من سككات الذي يعرف أيضا باسم سعرجات البرغواطي أن يدخل في طاعته فبلى، وطلب سككات أن يملك الجزيرة من يد ابن عباد فامتنعت عليه واتصلت الفتنة بينهما حتى ظهر المرابطون وتغلبوا على مدينة سبته (26).

وفي «الدخيرة» مما نقله مؤلفها عن ابن عباد أن السبب في فساد ما بين ابن

(22) المعجب 66 : والنفع 434 — 435

(23) المعجب : 67.

(24) المقتبس للحميدى 33 : والبقية للضي : 29 — 30

(25) البيان 3 : 231

(26) التاريخ 4 : 335

عباد وسكات راجع إلى ابن عباد اعتقل تاجرا من تجار سبتة في شيء حضره بحضرته فاعتدى عليه سكات أو اعتقل له عدة تجار فنشأت بسبب ذلك فتنة سنة سبعة وخمسين امتطيا لها ظهر اللجم، فتهاوتا على القطيعة واجتمعا على عقد البحر بينهما فتلفت فيه أموال وهلكت من أجلها نفوس رجال يطول في صفتها المقال إلى أن أكمل ابن عباد من أسطول أنشأه نحو من ثمانين قطعة فأجراها إلى سبتة فخرج عليها أسطول سكات فكان الظهور لابن عباد، ثم افترقت الأساطيل بعد هروب وسفك دماء وانقطع بحر الزقاق بينهما (27).

وذكر ابن خلدون أيضا من أخبار هذا العصر مما يتعلق بسبتة أن ابن عباد رام التخلص من رؤساء البربر الذين كان أسجل لهم على عملهم خوفا من ثورتهم عليه، فاستدعاهم إلى وليمة في قصره، وغرر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة وأطبقه عليهم فهلكوا به جميعهم، وأن أحد رؤسائهم لم يحضر معهم واسمه باديس بن حبوس خرج لطلب ثأرهم، ثم انهزم هو ومن معه، وخرجوا في مراكب إلى سبتة، فلما احتلوا بها طردهم سكوت حاكمها، فهلك أكثرهم في المجاعة التي صادفوا، وصاروا بالمغرب من ذلك العهد (28).

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ساءت العلاقة بين حاكمي سبتة لعهدهما رزق الله وسواجات البرغواطيين، وشعر سواجات بقدرته على إبعاد خصمه والتنكيل به، فهاجمه وقتله. وتسمى سواجات من يومها بالمنصور، واستبد بالأمر وحده، ويعني اللقب المذكور أنه أصبح يعتبر نفسه خليفة أو أميراً مستقلاً السلطان. وفي تاريخ ابن خلدون أن سكوت البرغواطى كان عبداً للشيخ حداد من موالي ابن حمود اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعه إلى أن استقل بأمرهم واقتعد كرسي عملهم بسبتة وطنجة وأطاعته قبائل غمارة (29) وكان إدريس بن حمود جعل له اليد العليا في أمور سبتة ولم يكن رزق الله معه إلا ناصرا وظهيرا (30) مما يفسر لنا قدرة الأول على الإيقاع بالثاني. وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته قصة سكوت هذا وارتقائه درجات الولاية على سبتة بكلام فائق يحسن إيراده بحملته لمعرفة ما آل إليه حال سكوت من العز والقوة والسلطان. قال

(27) الذخيرة — القسم الثاني — المجلد الثاني : ص : 259 — 260

(28) التاريخ 4 : 339 — 340

(29) التاريخ 4 : 456 — 457

(30) البيان 3 : 250

مؤلف «الذخيرة» «كان سقوت بن محمد المتغلب عليها (سبته) قد جرى عليه سباء، واستبد به ولاء، ففاز به قدح علي بن حمود، أيام امتري أخلافها، واعرورم من شقاقها وخلافها، ومن هالته طلع هلالاً وبدرا، وبين باطله وبطانته عتق خلا وخمرا، وعليه جيب رحاها، وإليه كان مجراها ومرساها، حتى عدت أيامه واشتهر مقامه، وملأ أجزاء الزمان وصدور الأوان بأسه وإقدامه، ولما أفضت الخلافة إلى سقوت زندها ومنتهى جهدها — يحيى بن علي — المتقدم الذكر — ألقى بمقاليد سبته إلى هذه الأفعى الجارية والشعلة الوارية، سقوت المذكور، فأقام به عمودها، وأطعمه قائمها وحصيداها، وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجري لأبعد شؤونه ليسر ويسرى، وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطف، أحد أجدال الطعان وكفاة الأقران فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهداها ويتعاطيان أقداها وأكوابها إلى أن وقع من مقتله سنة سبع وعشرين ما فرغنا من ذكره ونهنا على مسموع مستقره.

ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه بن إدريس بن يحيى بن علي، سما سقوت بن محمد فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق، وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر بحيلة خفية، تمخضت له بميته وحيه في خبر طويل، تركته تخفيفا للثقل، فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حثّ شمس سلطانه بالحمل، وقام دون زمانه فاعتدل، وسمي لأول وقته، يومئذ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان. (31) وهذا يكون أبو العطف رزق الله قد قتل في دولة إدريس بن علي، ويكون سقوت انفراد بأمر سبته من هذا العهد، وكلام صاحب الذخيرة في الموضوع يدل على ما كان عليه سقوت من الذكاء الوافر وقوة الحيلة والمكر والقدرة على التدبير مما مكنه من السيطرة على سبته واستجلاب أولاد غمارة.

وما من شك في أن ما قصصناه من صمود سبته وأسطولها في وجه أسطول ابن عباد الذي بلغ عدد وحداته ثمانين قطعة يدل على ما كانت عليه سبته من القوة البرية والبحرية في هذا العصر واستقلالها بالدفاع عن نفسها واعتزازها واعتزاز حاكمها بأمرها مما جعله يكيل الصفعة لابن عباد صفتين وبخاصة في أمور التجارة ويضغط عليه لضمان حرية التجار ومصالحهم، عملا بقاعدة المناظرة والمعاملة بالمثل. ومع أن ما أسلفت من كلام ابن حيان مما نقله مؤلف الذخيرة يشعر أن أسطول ابن عباد

كان له الظهور في المعركة حتى افترق الجمعان. وأن الافتراق كان لمصلحة ابن عباد فان الذي في الذخيرة نفسها مما قاله ابن بسام نفسه يفيد غير هذا، ويقول ابن بسام : «ثم غلظ أمر سقوت حتى أخاف القريب والنازح، واقتاد الحرون والجامع، وانبثت سراياه في البحر والبر، فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطاغى والراسب» (32) ووضوح كلامه في الموضوع يغني عن كل تعليق.

ظهور المرابطين ونهاية البراغواطيين

وظهرت في هذه الأثناء دولة المرابطين الصنهاجية التي قامت لتوحيد البلاد وتطهيرها من البدع ونشر كلمة الله في الآفاق، وأقبلت جحافل المرابطين من جهات الصحراء على أرض المغرب، فوجدت فيه مناخا طيبا ترعرعت فيه شجرتها وبسقت في جوه فروعها وأغصانها، وصارت تجتذب إليها كل من يريد أن يستظل بظلها أو يتخذ وكرا بين أفنانها وأوراقها. وكان المسلمون بالأندلس بعدما أذاقتهم النصارى القائمون على حدودهم أنواع العذاب والزموم أداء الغرامات الطائلة وتكالبا على حصونهم ومصانعهم ومدنهم وتحكموا في دولهم؛ أخذوا ينظرون إلى الصقع المغربي مؤملين طلوع النجدة من آفاقه، مرتقبين أن تأتي رياح النصر منه بعدما علموا أنه لا بقاء لدولهم في ظل تلك القواعد التي رسمتها دول الطوائف الأندلسية لها من الخلاف والتناحر والكيد وعدوان الجار على جاره. وبرقت لهؤلاء المسلمين بوارق الأمل حين طلعت في أفق المغرب دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين زعيمها المنصور الذي نذر نفسه للجهاد وبذل كل جهوده في سبيله وتهمم لأمر المسلمين في الأندلس لما بلغه من سوء حالهم وطغيان عدوهم عليهم وتوافرت الكتب والسفراء على يوسف بن تاشفين من بلاد الأندلس تستحثه على الجهاد، وقال شعراؤها في الموضوع قصائد تؤذن بقرب أفول شمس الإسلام عليها إذا لم يهب المسلمون لانتقاذها ومن هذا قول شاعرهم بعد سقوط طليطلة :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقه

كيف الحياة مع الحيات في سبط

وكان من أكثر ملوك الطوائف بالأندلس سعيًا في طلب نجدة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : ملك اشبيلية والجزيرة المعتمد بن عباد الذي ذقت دولته أيامه من عسف ملك النصارى الفونسو السادس وجريت من استطالته وبغيه ما جعله يقرر أنه لا فرار من دعوة يوسف بن تاشفين للجهاد. وانضم إلى رأي المعتمد هذا عدد من أمراء الأندلس وفقهائها ولا سيما أميرًا بطليوس وغرناطة، وقرروا إرسال سفارة مشتركة إلى يوسف من قضاة قرطبة وغرناطة وبطليوس صحبة الكاتب أبي بكر بن القصيرة وفي رواية أخرى أبي بكر بن زيدون للقاء أمير المسلمين وشرح واقع المسلمين له وحضه على الجهاد، وهنا تذهب إحدى الروايات إلى أن هذه البعثة وصلت إلى سبتة وأبلغت أمير المسلمين ما جاءت لأجله وأن الجيش المرابطي كان قد انتزع في ذلك الوقت سبتة من يد حاكمها سقوت البرغواطي، في حين تذهب رواية أخرى إلى أن المعتمد بن عباد نفسه عبر البحر إلى سبتة أو إلى فاس ولقي أمير المسلمين يوسف ودعاه للجهاد⁽³³⁾. والواقع الذي يشته تاريخ مدينة سبتة أن هذه الاتصالات وقعت أول الأمر في غير سبتة، إذ أن سبتة إلى هذا الحين كانت لا زالت في يد حاكمها سقوت البرغواطي، وكان على أمير المسلمين أن يخوض معه معركة ضارية لاستلام هذه المدينة قبل الخروج إلى الجهاد في الأندلس.

وتقول الرواية المغربية لهذا الحادث الذي تؤرخه بعام 467 هـ أن يوسف بن تاشفين قال لرؤساء الأندلس إنه لا يمكن الإستجابة إلا إذا ملك سبتة وطنجة، فعرض عليه المعتمد أن يساعده على ذلك بإرسال قطائعه في البحر عليها وينازلها يوسف بن تاشفين برا⁽³⁴⁾ وقبل استجابة يوسف لهذا العرض أخذ في الإستشارة وإعمال الرأي طمعا في أخذ المدينة سلما وخاطب صاحبها سقوت البراغواطي في الأمر، وكاد هذا يستجيب له، لولا أن ابنه العز ضياء الدولة صرفه عن ذلك ودعاه إلى حرب المرابطين دفاعا عن سبتة وطنجة⁽³⁵⁾.

(33) راجع دول الطوائف لعنان ص : 77

(34) القرطاس : 98

(35) الذخيرة : القسم الثاني - المجلد الثاني 660 - 661

شخصية ضياء الدولة العز البرغواطي ودوره :

وكان ضياء الدولة هذا نشأ نشأة أبناء الملوك، بعيد الهمّة قوي البأس شديد الشكيمة صلبا في أمور الملك لا يلين. وكان إلى ذلك شابا مثقفا رويا من الآداب والعلوم وأكسبه ذلك طموحا جعله يتصرف في عهد والده تصرف ملوك الطوائف لعهدده وأبنائهم. ولما رأى منه والده ذلك أسند إليه أمر طنجة وولاه الحجابة، فكان يلقب بالحاجب وكان والده لا يقطع رأيا دون استشارته. وما من شك في أنه كان مغرورا بقوته مزدهيا بقبيلته، منتعشا بما كان يسمع من مدح الشعراء فيه. وكان هؤلاء يجتمعون في فناءه اجتماعهم في فناء قرينه لذلك العهد المعتمد بن عباد شاعر اشبيلية وملكها. وقد ترك لنا صاحب الذخيرة أوصافا لشباب هذا الحاجب تطلعنا على ما ذكرناه وتوقفنا على ما وصفناه فقال يصف ذكاه وقوة بأسه : «كان هذا الفتى على بعد مراميه ولودعية — زعموا كانت فيه — يذهب مذهب الجبابة من ملوك الطوائف عندنا من الأعراض عن العواقب وأخذ الشاهد عيارا على الغائب» (36) ويقول عن دوره في حماية مملكة برغواطة، والذب عنها واستعماله اسطولها وبحرها وتسليطه فيه أن موصوفنا «استعان بالشر وتهاون بالأمر، لا يحيا إلا من غلول ولا يجيش إلا إلى ابن السبيل، لا سيما البحر، فإنه أضرم لججه نارا، ولقي رجه إعصارا، أخذ كل سفينة غصبا وأضاف إلى كل رعب رعبا، فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء» وقال يتحدث عن أدبه وثقافته واجتماع الشعراء على بابهِ وما كان يبذله لهم من عطاء جزل، بعدما وصفه بأنه شهاب الدولة وخيرة أملاكها أنه : «هَبَّ للأدب ريحا ونفحت دولته في أهلها ريحا، أعرض به الشعراء وأطالوا، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا. ومن خيم في ذراه ونال الحظ الجسيم من دنياه الحصري الضرير. فإن له فيه ما أذهل الناظر عن الرقاد وأغنى المسافر عن الزاد. والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه. ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه. وكان سهل الجانب للقضاء طلق اليد بالمواهب الأفراد» (37).

والعز بن سقوت هذا هو الذي أراده الشاعر أبو الحجاج المنصفي حين قال : في وصف بليونش :

(36) الذخيرة : القسم الثاني — المجلد الثاني ص : 661
(37) الذخيرة : القسم الثاني — المجلد الثاني ص : 261 — 262

انظر إلى نضرة زهر الربى كأنه وشي على كاعب
ومتع الطرف بليونش ومائها المنبعث الساكب
شاركت والحسن في وصفها تشارك العين مع الحاجب
وقد آرتنا اليوم من حسنهما مالم يكن في الزمن الحاسب

قال المقرئ في أزهار الرياض تعليقا على الآيات المتقدمة : «والحاجب أحد ملوك سبته، وله عمل ابن مرانة قصيدة في الكوائن والحوادث...» (38).

وما من شك في أن شخصا مثل هذا في ريعان الشباب وعنفوانه وعلى مدينة حصينة كمدينة سبته وجبال شامخة منيفة كجبال شمال المغرب، وفي زمن تقلبت حوادثه وتناطحت تياراته وتنافرت ملوكه، لا سيما مع ما عرفنا من العداء القديم بين عائلة عباد وعائلته وتدخل ابن عباد لدى يوسف بن تاشفين في أمر الأندلس ورغبة يوسف في امتلاك سبته وليس مجرد العبور منها، وما نعرفه من العداء القبلي بين صنهاجة التي منها يوسف ومصمودة من زناتة التي منها أسرة العز بن سكوت. لا شك أن شخصا مثل هذا في مثل هذه الظروف السابقة لا يمكن أن يخضع لطلب يأتيه بالتخلي عن أملاكه والتجرد من سلطانه من أي كان ومهما كانت الأسباب. ولا يجمل هنا مقارنة حاله بحال ملوك الأندلس الذين جاءوا راغبين مهطعين، ذلك أن هؤلاء لم يسلكوا هذا المسلك إلا بعد ما ذلوا أمام ملك الأسبان الفونسو السادس الذي كان يقطع كل يوم ملكا من ممالكهم ويضرب عليهم الجزية ويلقب نفسه أميرا طور الملتين ويدعو نفسه السيد ويضرب بين ملوك الأندلس ورؤسائها، ويعلن أنه عاجلا أو آجلا آخذ كل الجزيرة لنفسه ويسخر علنا من تطاحنهم وتشاحنهم. وهذا وصف حال الأندلس في هذا العصر مما لخصه ابن أبي زرع من أخبارها إذ قال : «بأن الفتح تحرك في سنة 475 هـ، في جيوش لا تحصى من الروم ومن الأفرنج والبسك والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الأندلس شقا، يقف على كل مدينة منها، فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ويرتحل إلى غيرها، ونزل على اشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام، فأفسد أحوازها وهتكها وخرب بالشرق قرى كثيرة، وكذلك فعل بشدونة وأحوازها، ثم سار حتى وصل جزيرة طريف، فأدخل قوائم فرسه في البحر، وقال : هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته، ثم رجع إلى مدينة سرقسطة، فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول

الموت بينه وبين ما يريد، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها من بلاد الأندلس، فنزل إليه أميرها المستعين بن هود بمال عظيم، فبذله له، فلم يقبله منه، وقال : المال والبلاد له، وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشا للتضييق عليهم والحصار فملك مدينة طليطلة، وذلك في سنة سبع وسبعين وأربعمائة.

أما البرغواطيون في سبته فلم يكونوا جربوا شيئا من هذا، ولم يخضعوا لمكر من هذا القبيل، ولم يكن من شأن الاصفاء إلى نداء أهل الأندلس أن يذهب بهم في نكران الذات والتواضع والحرص على المصلحة العامة مبلغ التنازل عن بلدهم وتقديمه لقمة سائغة لمن يريد تنازله من أيديهم. فعثر منهم لهذا أمير المسلمين بصخرة صماء، ولم يكن أمامه غير القتال سيلا، واضطر لما عبر عنه الشاعر إذ قال :

إذا لم يكن إلا الأُسنة مركبا

فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

ومع هذا الذي تقدم لم يقدم أمير المسلمين على هذا العمل الحربي إلا بعدما استشار فقهاء دولته كعاداته وجاءته الفتوى من فقهاء الأندلس بما لا يسر صاحب سبته (39) وعقد يوسف بن تاشفين لهذا الغرض مجلسا للحرب عام سبعين وأربعمائة قرر على إثره إرسال عساكر المرابطين لحرب طنجة وسبته وجعل على رأسها صالح بن عمر، أو في بعض الروايات ابن عمران في اثني عشر ألفا من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب من زناتة وغيرهم. فلما أشرفوا على طنجة خرج إليهم الحاجب سقوت البرغاطي الوالد بجموعه وكان شيخا كبير السن سنه ستة وثمانون سنة، وقال عند خروجه : «والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حي» فكان اللقاء بناحية وادي منى من أحواز طنجة وانكشفت عساكر سكوت وقتل هو في المعركة (40) وأخذ اللمتونيون مدينة طنجة وفر عنها العز ابن سكوت إلى سبته وتحصن بها.

وعندما بلغ النبأ إلى أمير المسلمين بافتتاح طنجة سر لذلك غاية السرور، وأخذ من يومها يفكر في غزو مدينة سبته والاستعداد للجهد بالأندلس، واستقر رأيه

(39) البيان 4 : 132 — 133

(40) تاريخ ابن خلدون 4 : 457 والقرطاس 98 والذخيرة — القسم الثاني — المجلد الثاني 261

أخيراً على هذا بعدما ظهر عزم الفنس السادس على القضاء على دولة الاسلام بالأندلس كما مر فيما رويناه عن أبي زرع حين تواترت كتب الأندلسيين إليه ملوكاً ورعية تستنصره للجهاد. فبعث لهذا الغرض ولده المعز إلى سبتة في جيش عظيم فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها عام 478 هـ وكان فتحها تم بتنسيق كامل بين جيش يوسف وأسطول المعتمد بن عباد الذي ساهم في حصار سبتة بحراً، وترجم رواية تاريخية عن هذا الفتح أن أسطول بن عباد هو الذي قام بهذا الحصار البحري الذي أدى إلى سقوط المدينة (41).

بينما تذهب رواية أخرى مفصلة إلى عدم انفراده بهذا العمل وإلى مشاركة أسطول المرابطين فيه بأكبر قسط. ويتحدث الوصف الذي تسوقه هذه الرواية عن العمل الذي قام به أسطول سبتة في الدفاع عنها وحمايتها والخسائر الفادحة التي ألحقها أسطول المرابطين، وتغزو الخلل الذي وقع بعد ذلك في دفاع هذا الأسطول عنها إلى خصام وقع بين قائد الأسطول وحاكم المدينة العز بن سقوت كان سبباً في ضعف معنويات قواتها البحرية وعدم قيامها التام بواجب الحماية الكاملة للمدينة. فقول هذه الرواية بلفظ صاحبها ابن بسام منها : «لما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين قدم أمير المؤمنين لقتال سبتة أسطولا فخما رجم به مردة عفاريتها رجماً، ولقيه العز بن سقوت ببقية جمعة من أسطول، طالما أوسع البلاد شراً، وملأ قلوب أهلها ذعراً، فكان لأول ذلك اليوم ظهور على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار، ظاهرة الحماة والأنصار فكان من إذلال الله العز بن سقوت يومئذ أن بخل على أخذها، وتكلم بكلام أنكر عليه فيه، وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام وقوضوا بعض الخيام، وغضب أمير المسلمين وناصر الدين — رحمه الله — إحدى غضباته فكانت إياها، وفغرت المنايا على سبتة فاها» (42) وتوضح هذه الرواية مدى إسهام أسطول ابن عباد في هذه المعركة الحامية الوطيس وتحصره بسفينة كبيرة كان ابن عباد أنشأها شاحخة البنيان قوية الأركان من المنشآت في البحر كالأعلام، رآها ابن تاشفين في طنجة إذ جاءت في مهمة تجارية، فطلب من صاحبها المعتمد أن يمدّه بها في حربه على سبتة فوافقه على ذلك وبعثها إليه. قال ابن بسام : «وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها

(41) ابن خلدون 6 : 382 والاستقصا 2 : 34، والبيان لابن عذاري 4 : 132 — 133 ونفع الطيب 4 : 360.

(42) الذخيرة : المجلد الثاني القسم الثاني ص 663

مصانع الملوك القاهرين، بعد العهد بمثلها شدة أمر، وسعة بطن وظهر، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا، ووجهها إلى مدينة طنجة لتمتار، وقد أنجد أمر الله وأغار، ولما رأى أمير المسلمين وناصر الدين تلك السفينة خاطب المعتمد في ذلك، فشحت على سبته موتا ذريعا، وأقيمت بإزاء أسوارها حصنا منيعا» (43) ويذكر ابن بسام أنه بعد قضية أمير المسلمين سالفه الذكر أعطيت الأوامر للسفينة المذكورة، فتقدمت السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارقها وأفضت بدولة صاحب سبته إلى سوء قرارها، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ وتضيف هذه الرواية الفريدة الهامة التي فصلت مسألة أخذ سبته من صاحبها الشهير أن العز بن سقوت لجأ في نفير من أصحابه إلى البحر، فأعوزه الفرار وعاجله المقدار وكر راجعا، فدخل في دار تعرف بدار تنوير، وبدر به جماعة من المرابطين فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد وقتال شديد حتى طاف اضطرابه وفر عنه أصحابه، ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته، فبلغني أنه عثر عليها، ووجد فيها جوهر كثير، ونشب من نشب الملوك خطير، ووجد في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود.

وخرج العز بن سقوت حين وضع الفجر من ليلته تلك فلقية العز بن أمير المسلمين — رحمهما الله فجللة الحسام، وحكم فيه الحمام، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبید آلاؤه (44).

(43) نفس المصدر القسم الثاني المجلد الثاني ص 662

(44) نفس المصدر ص : 632 المجلد الثاني.